سلسلة رحلات ابن بطوطة

العدد ٣

ابن بطوطة فى مملكة بلقيس

نوال مهنى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة
المــولــف : أ. نوال مهنى
تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التوزيــــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيســى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقــم الإيـــــداع : ٩٩/٢٣٧٨
الترقيــم الدولــى : ISBN
977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبـد الله محمـد بـن إبراهيـم الطنجى الشهير بابن بطوطـة القيـام برحلـة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنـع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكـة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكـن معـه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايـا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان يـنزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحـاب الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبـون

به. وفى عصر ابن بطوطة لــم يكــن النــاس يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجــارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمراً شــائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى الســفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العــالم القديــم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائــف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالــها عــدة لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنــه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابــن بطوطــة

رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بيــن بلد وآخر ولم يشغل نفسه بـــالعمل أو التجـــارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلتـــه دينية اجتماعية ولم تكن مــــن أجـــل كشـــوف جغرافية أو بحوث علمية. وكـــان عمـــر ابـــن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشـــرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البـــلاد فأكرمـــه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحيــن انتهى من كتابتها أسماها (تحفـــة النظـــار فـــى غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبــد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلـــة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعـــل. وكـــان زمـــن

الرحلة القرن الرابع عشر الميــلادى، ويعتــبر ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصــو الوسيط ولا زالــت أخبــار رحلتــه العجيبــة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطـوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفـــة

نوال مهنى

ابن بطوطة فى مملكة بلقيس

كان صديقنا ابن بطوطة شغوفا جدا لزيارة مملكة بلقيس فقد سمع كثيرا عن هذه البلاد ذات الحضارة القديمة والتاريخ العريق.

فركب سفينة ذات عمق يشتهر ببنائها أهل السواحل بالقرب من البحر الأحمر وتسمى جلبة وهى سفينة مكونة من دورين: الدور الأول يستعمل لخزن الطعام والماء والبضائع ويسمى العمق، والدور الثانى يستعمله الركاب ويسمى السطح.

وركب ابن بطوطة وتعرّف على الركاب وكان معظمهم من التجار وقامت بينه وبينهم صداقة ومودة وتصادف وجود أحد أمراء

الحجاز على ظهر السفينة أيضا واسمه الشريف منصور ومعه خدمه وحراسه، وكان من عادة الملوك والأمراء فى هذا العهد إذا أرادوا أخذ شيء من أموال الشعب أخذوه دون استئذان واعتبروا ذلك حقا لهم.

فطلب الأمير منصور من خدمه أن يهبطوا إلى الدور الأول فى السفينة ويحضروا السمن والدقيق من بضاعة التجار كى يصنعوا له طعاما.

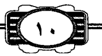
فهبط الخدم وأحضروا (عديلة دقيق وبطة سمن) من بضائع أهل اليمن ــ والعديلة نصف حمل والبطة إناء معدنى يحفظ السمن والزيت والعسل وخلافه.

وحينما رأى صاحب بطة السمن الخدم وقد أخذوا بطته انتابه الذعر لأنه أخفى بداخلها صرة بها عشرة آلاف درهم فضة خوفا من اللصوص.

وطلب صاحب البطة من ابن بطوطة أن يستسمح الأمير فى اعادة النقود إليه ويأخذوا البطة بما فيها من سمن وصديقنا ابن بطوطة يحسن الحديث ويحسن التعامل مع كبار القوم وأشرافهم فذهب للأمير وأقنعه بعودة النقود الفضية إلى صاحبها فوافق الأمير على ذلك.

مضت السفينة الجلبة فى سيرها نحو اليمن والناس سعداء بقرب الوصول. وفجأة هبت ريح عاصفة غيرت اتجاه السفينة ولم يستطع

الربان السيطرة عليـــــها واســـتمرت الســفينة تتأرجح يمينا ويسارا والريح تشتد والموج يعلـو حتى رست على الساحل ونزل الركاب فوجدوا كوخاً معّرشاً بالقصب والقش فجلسوا بداخلـــــه واستراحوا قليلا ثم ســــألوا بعــض أصحـــاب المنطق فأخبرهم أنهم على ســـاحل الســـودان. فعرف الركاب أن السفينة رست على الجـــانب الآخر من بحر القلزم وهو الاسم القديم للبحـــر الأحمر وغضب الركاب ولكن ابن بطوطة كان سعيدا راضيا وتعرّف على ســـكان الســـواحل وكانوا يسمون أنفسهم البجاة وهم شــعب قــائم بذاته يسكن ساحل البحر الأحمر من أسوان إلى السودان وهم مـــا نســميهم اليــوم بالبشـــارية



ويمتازون بالبشرة السوداء والملابس الصفـراء والعمائم الحمراء ويحملون الرماح والسـيوف ويملكون الجمال وعليها السروج.

واقترح ابن بطوطة على زملائه أن يقوموا بجولة فى سواحل السودان التى نزلـوا عليـها حتى تهدأ الريح ويسافرون إلى اليمـن مـرة أخرى.

فقاموا بكراء الجمال من البجاه وخرجـوا معهم فى برية كثيرة الغزلان للصيد والفرجـة واستمروا فى سيرهم حتـى وصلـوا مدينـة سواكن السودانية.

ومن مدينة سواكن ركب ابن بطوطة سفينة مسافرة إلى اليمن وركب معه رفاقـه وكـانت

السفن تسير نهارا وترسو ليلا على شـــاطئ أى جزيرة تصادفها.

وكان الناس يعتقدون أن البحـــر الأحمـــر خطر على السفن وأن به أحجـــارا وصخـــورا مغناطيسية تجذب المعادن إليها وتغرقها ولذلـك كان صناع السفن يربطـــون ألـــواح الخشـــب بالحبال ولا يدقون فيـــها المســـامير حتـــى لا يجذبها المغناطيس فتغرق، ولذلك كانت الســـفن ضعيفة سهلة التفكك ولاحظ ابـــن بطوطـــة أن أغلب هذه السفن لا يصلح للسفر ســـوى مـــرة واحدة.

وبعد عدة أيام وصلت السفينة إلى اليمـــن. وكان صديقنا ابن بطوطة قد قرأ كثـــيرا عـــن



تاريخ هذه البلاد وعن الممالك العظيمة التـــى قامت على أرضها قبل تبع وحمير ومملكة سـبأ الذى جاء ذكرها فى القرآن الكريم، وكان اليمن قديما يسمى اليمن السعيد لكثره مــا بــه مــن بساتين وجنات وجمال الطبيعة وحضارة شعبه.

وكانت الملكة بلقيس ملكة سبأ وهــى مــن ممالك اليمن القديمة ملكة عظيمة ذكية وحينمــا أرسل إليها سيدنا سليمان كتابا يدعوهـــا إلـــى الإيمان بالله الواحـــد الأحـــد جمعــت قومــها وأخبرتهم بكتاب سليمان إليها وطلبت مشورتهم وتم الاتفاق على أن تذهب إلى سيدنا ســـليمان وتحمل معها الهدايا، وعندما وصلت أمر سـيدنا سليمان عفاريت الجن الذين يأتمرون بــأمره أن

يصنعوا طريقا فى القصر تخطو فوقه وكأنـــه ماء يجرى، فلما همت بالسير ظنته لجـــة مـــن الماء ورفعت ثوبها. ونظـــرت إلـــى الفــرش الموجود فى صدر المجلـــس وســـألها ســـيدنا سليمان إن كان يشبه عرشها فقالت: كأنه هـــو، وكان العرش عرشها بالفعل وأحضــــره أحـــد العفاريت فى لمح البصر. وآمنت الملكة بلقيـس بدعوة سليمان وأسلمت معه لله وتزوجته.

أما أهل سبأ فأعرضوا فأرسل الله عليـــهم سيل العرم فأغرقهم وبدل جنتيهم اللتين كانتـــا عن اليمين والشمال بجنتين لا ينمو فيـــهما إلا الخمط والاثل والسدرو كلها نباتات غير طيبـــة

ولا يستساغ أكلها جزاء ما كفروا بالله وصدوا عن سبيله.

طافت كل هذه المعلومات بذهن ابن بطوطه. وهو يخطو على أرض اليمن متوجها إلى مدينة صنعاء ويصل ارتفاعها إلى ١٢٠٠ متر عن سطح البحر ولا تقع على الساحل بل هى مدينة برية فى داخل الجبال وفوق ربوة عالية وهى معتدلة المناخ بسبب ارتفاعها وتكثر حولها البساتين والخضرة. ومن عادات أهل صنعاء الخروج للنزهة يوم السبت ومعهم أصناف الطعام والشراب وأدوات اللعب والطرب.

ويخرج الباعة ومعـــهم أصنـــاف الفاكهـــة والحلوى وكل ما تتطلبه النزهات والرحلات.

وفى ذلك الوقت الذى دخل فيه ابن بطوطة اليمن لم تكن صنعاء هى العاصمة كمـــا هـــو الحال الآن، وإنما كانت العاصمة هـــى مدينـــة تعز وهى مدينة ساحلية جميلة.

أما صنعاء فقد استقل بها آنذاك الزيديـــون بزعامة أمامهم أحمد بـــن الحســـين وجعلوهـــا عاصمة لهم.

ومدينة صنعاء تمتاز بأن جميع شـــوارعها مبلطة أو مفروشة بالبلاط فإذا نـــزل المطـــر غسلها فتبدو الشوارع والأزقة نظيفـــة براقـــة

وهى بحكم ارتفاعها كثيرة المطر فتبدو نظيفة دائما.

ولقى ابن بطوطة من أهل اليمن كل أنواع الكرم والترحيب وصديقنا ابن بطوطة مغرما بمعرفة العلماء ورجال الدين فتعرف على شيخين جليلين هما الشيخ الفقيه أبى الحسن الزيلعى وقاضى القضاة الإمام صفى الدين الطبرى.

وذهب معهما إلى زيارة سلطان اليمن والتعرف عليه وقد أكرمه السلطان ودعاه إلى تناول الطعام.

وأثناء وجود ابن بطوطة فى اليمن زار آثار سد مأرب المهتدم وسأل عن القليس الذى

بناه أبرهة الحبشى حين أراد أن يصرف العرب عن عبادة الكعبة فبنى معبدا فخما فى بلاد اليمن حتى يحج إليه العرب ثم أحضر فيلا ضخما واتجه إلى مكة لهدم الكعبة ولكن الله سبحانه كان لهم بالمرصاد فأرسل عليهم طيورا من السماء تقذفهم بالحجارة حتى هلكوا.

وسمى هذا العام عند العرب بعام الفيل وفيه ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد حكى القرآن الكريم هذه القصة فى سورة الفيل.

ويبدو أن ابن بطوطة لم يعثر على أثر لهذا المعبد الحبشى المسمى قلّيس لأنه لم يقدم لنا وصفا لرؤيته كعادته وأعجب ابن بطوطة كثيرا

بحدائق الموز ومزارع العنب المنتشـــرة فـــى اليمن.

ولما كانت اليمن تقع فـــى جنـــوب شـــبه جزيرة العرب فهى بالتالى قريبـــة مـــن بـــلاد الخليج العربى ولها موانى على ساحل البحـــر الأحمر وتشتهر بزراعة البن.

ولكن يبدو أن ابن بطوطة لم يجد فى اليمن من العبّاد والزهاد وشيوخ الطـــرق إلا القليـــل ولذلك لم تطل إقامته فى اليمن رغم حبه الشديد لأهلها وإعجابه الكبير بهم، لأن صاحبنا ابـــن بطوطة كان يقضى أغلب وقته فـــى التجـــول والمشاهدة ثم فى مصاحبة أهل التصوف مـــن الشيوخ والمريدين وكان يستمد منـــهم البركـــة

ويثق فـــى كراماتـــهم باعتبـــارهم أوليـــاء الله الصالحين.

ورحل ابن بطوطة عن اليمن برًّا إلى عدن ثم ركب البحر الأحمر حتى وصل إلى مقديشـو وهى فى بلاد الصومال الحاليـــة وأهلـــها ذوو بشرة سوداء ولـــهذا يســـميهن ابـــن بطوطـــة بالبرابرة وكان معظمهم من التجار، ولهم تقاليد جميلة تدل على الكرم والأصالة. منها مثلا أنهم ينتظرون قوافل التجار على الساحل. وحينمـــا تصل المراكب بالتجار الغرباء يصعدون إليـــها ويختار كل تاجر تاجرا من الضيوف الوافديـــن ليكون نزيلا عنده ويشترى منه بضاعته بـــالثمن

الحلال بالإضافة إلى تقديم واجبات الضيافة من إقامة وطعام.

وبلغ من كرمهم أنـــهم كـــانوا ينتظـــرون ضيوفهم فى الميناء ومعهم الطعام والشراب.

فلما رست المراكب صعـــد التجـــار إلـــى سطحها وكل منهم يختار التاجر الذى يروقـــه وتعجبه بضاعته ليكون ضيفه.

ورأى ابن بطوطة ذلك فوقـــف حـــائرا لا يعرف ماذا يصنع وهو ليـــس بتـــاجر. وأراد بعض التجار اختيار ابن بطوطة ليكون ضيفـــه فقال له أحد الركاب إنه ليس بتاجر ولكنه فقيـــه فقال له التاجر إذن فـــهو ضيـــف القـــاضى. وتصادف وجود أحد أصحاب القـــاضى علـــى

ظهر المركب فعرف بذلــك فــاصطحب ابــن بطوطة معه وكان بانتظاره عدد مـــن الطلبـــة على الساحل وذهبوا جميعا إلى بيت القاضى.

وكان من عادة هذه البلاد احترام مراتـــب الناس فالتجار يستضيفون التجار لأنهم من نفس المرتبة أو الطبقة ــ أما الفقهاء فهم من مرتبـــة القضاة ولذا نزل ابن بطوطـــة ضيفـــا علـــى القاضى وتعرف على الســـلطان، وأقـــام ابـــن بطوطة في دار الطلبة وقدموا له الطعام وهـــو عبارة عن أرز مطبوخا فى السمن ومعه اللحـــم والدجاج ومن أشهر أكلاتهم المـــوز المطبـــوخ باللبن الحليب واللبن الرايب ومعـــــه الليمـــون المصبر أى المخلل.

وأعجب ابن بطوطة بالفاكهة التى يسمونها العنب وهى مثل التفاح ولكن توجد نواة فى وسطها.

وهكذا عاش ابن بطوطة فترة فى دار الطلبه عيشة رغدة وعومل خلالها معاملة الفقهاء والقضاة وكبار القوم ورغم ذلك قرر ابن بطوطة الرحيل فلم يكن يطيق البقاء طويلا فى أى مكان لأن شغله الشاغل هو متابعة الرحلة والسياحة فى بلاد الله ومشاهدة الخلق الله. فودع أصحابه وشكرهم على استضافته وإكرامه وخرج إلى الساحل ينتظر المراكب القادمة حتى يركب عليها ويذهب معها حينما تذهب.

وكان ابن بطوطة فى جميع مراحل رحلتـه لا يخطط للسفر إلى بلد معين وإنما كان ينتقـل وفقا لما تتيحه الظروف وطبقا لما يتيسر مـن المواصلات والصحبة وعلى كل حال فقد جعـل أم القرى أى مكة المكرمة مركزا لرحلته فكـان يحج كل عام ويعتمر ثـم يتـابع رحلتـه مـع الحجاج العائدين إلى بلادهم ويظل ينتقل طـوال العام حتى يأتى موسم الحج فيخرج مع الحجاج إلى مكة مرة أخرى وهكذا.

المهم أن صاحبنا ابن بطوطة قرر الرحيـل عن بلاد الصومال وانتظر على السـاحل ثـم ركب سفينة اتجهت به نحو الغـرب ورسـت على ساحل الخليج العربى فنزل على السـاحل

ثم مضى إلى الداخل حتى وصل إلـــى مدينـــة ظفار بالقرب من عمان.

ورأى ابن بطوطة أن أهل ظفار يشـــبهون أهل المغرب فى عاداتهم وطرق حياتهم وحتـــى فى أسمائهم.

وحين نزل ضيفا على خطيـــب المســـجد الأعظم فوجد عنده خادمتان تســـمى إحداهمـــا بخيته والثانية زاد المال وهى أسماء مغربية.

وبالقرب من ظفـــار توجـــد بلـــدة تســـمى الأحقاف وبها منازل قوم عاد وقد زارها ابـــن بطوطة ونزل بزاوية بها مسجد علـــى ســـاحل البحر وفى داخل الزاوية يوجد قـــبر مكتـــوب عليه ــ هذا قبر هود بن عابر عليـــه أفضـــل

الصلاة والسلام. وبالقرب من الزاوية توجد قرية لصيادى السمك وقد اعجب ابن بطوطة بأكلات السمك الشهية.

ولكن ما لفت نظره هو أن هذه المنطقة تنتشر بها نباتات ما رأى قبلها من قبل تسمى التنبول.

وهو شجر يغرس وله دوالى وتعمل له دعامات أو تكعيبات مثل العنب ولا ثمر له ولكن أوراقه لها أهمية وفائدة فى العلاج ولها فوائد صحية.

وينتقل ابن بطوطة بين مدن الخليج والجزر الموجودة حولها وكان طعامه أغلب الوقت التمر والماء.

وفى كل بلدة ينزل بـــها يحـــرص علـــى زيارة معالمها وخاصة المساجد والزوايا وقبور الصالحين ولكن صاحبنا ابن بطوطة كعادتـــه لا يستقر فى مكان فهو دائم الترحال والسفر.

وقرر الرحيل فوجد مركبا فركبها وبينمـــا المركب تسير فى البحر رأى جبلا فى أعـــلاه زواية صغيرة فى البحر فطلب مـــن صـــاحب المركب أن يتجه إلى هذا الجبل حتى يستريحوا قليلا.

وصعدوا أعلى الجبل الصخرى وعرفوا أن اسمه جبل لمعان ــ فوجدوا مبنى من الحجـــارة مسقوف بعظام السمك ــ وأمامه بركـــــة مـــاء يجتمع فيها المطر.

فاستراحوا وشـــربوا مــن مــاء البركــة واستطلعوا الموقع من أعلى الجبل ثم نزلوا إلى المركب.

وهكذا ترك ابن بطوطة منطقـــة الخليـــج العربى الذى نزل بها بعد رحلته إلـــى اليمـــن والصومال وقرر الرحيل إلى مكان آخر.

واستقل مركبا واتجه إلى بلاد جديـــدة لـــم يرها من قبل.

☆ ☆ ☆